

ملف العدد

العمارة الإسلامية : « تاريخ وتطبيقات معمارية »

“L’architecture islamique, histoire et pratiques architecturales”

معالم من العمارة الإسلامية المعاصرة

د. نعيمة أحمد بن قاري

—جامعة السلطان قابوس- سلطنة عُمان

المقدمة:

لنتمكن من رصد الوجهات التي أخذتها العمارة في البلاد الإسلامية منذ الستينيات وإلى يومنا هذا، ارتأينا أن ندرس إحدى أهم المرافق التي أفرزتها هذه الحضارة منذ بدايتها في المنتصف الأخير من القرن السابع الميلادي وهو المسجد أو الجامع، ويعتبر هذا المرفق أهم مبنى في العمارة الإسلامية نظرا لأهمية صلاة الجماعة في المجتمع المسلم أينما كان.

وتدرس هذه الورقة عمارة المسجد والتحويلات التي طرأت عليها في الخمسين سنة الأخيرة وهي فترة مهمة في تاريخ العمارة عموما، حيث شهدت تطورا كبيرا لهذا الفن، ويرمي البحث إلى فرز الأنماط المختلفة للمساجد ليس على أساس مقوماتها الشكلية والمعمارية فحسب، وإنما على أساس مصادر تمويلها ودور المجتمع المدني في بنائها، كما سنحاول من خلال هذه الدراسة استكشاف طبيعة العلاقة التي يبنمها المجتمع المسلم مع محيطه الاجتماعي والعمراني من خلال اختياره لنمط العمارة التي يتخذها المسجد.

كما أننا سنغتنم هذه الفرصة للمساهمة في مناقشة نقطة مهمة في عمارة المساجد في القرن الواحد والعشرين والتي تتعلق بالجوانب الدينية و"المقدسة" في عمارة المسجد ومكوناته التي لا ترتبط بالضرورة وبشكل مباشر بالممارسة الدينية.

المنهجية:

تناول عدد من كبار المختصين في تاريخ العمارة الإسلامية إشكالية عمارة المساجد المعاصرة، ونحن نحذو حذوهم حتى نكمل مناقشة ما وصل إليه المسجد في المجتمع المسلم من حيث شكله ورمزيته ودوره في المدينة أو التجمع السكني وأيضا من حيث طرق وآليات بنائه والتيارات الفنية التي أثرت في أشكاله.

يقوم هذا البحث بدراسة ما يزيد عن خمسين مسجدا وجامعا في شتى أنحاء العالم، ومراجعة ما كُتب عنها من وصف ونقد وتأريخ، فالمنهجية كانت وصفية وتحليلية بالنسبة للمبنى الواحد مقارنة بالمباني فيما بينها.

وقد رجعنا أثناء البحث إلى أرشيف موقع الأغا خان الذي يعتبر مصدرا أساسيا للعمارة الإسلامية في العالم، وهذا منذ التاريخ الإسلامي الأول وإلى الوقت الراهن، وقد حصلنا على معظم أمثلتنا في هذه الدراسة من هذا الموقع خاصة تلك التي منحت جائزة الأغا خان في مختلف دوراتها، أما المصدر الثاني فهو نتاج ما وقفنا عليه من معالم خلال أسفارنا أوقراءتنا في هذا الميدان.

وفي منهجية بحثنا التحليلية والترتيبية، اتخذنا سلوك (Grabar 2006) التاريخي وسلوك حسن الدين خان وإسماعيل سراج الدين وريناتا هولود (Serajeldin, I. 1989) و(Khan, H. 1990) و(Holod, R. & Khan, H. 1997) التحليلي والترتيبي، وذلك كي نقدم لوحة وصفية تحليلية ترتيبية لعمارة المساجد وتطورها خلال النصف الأخير من القرن الماضي. وقد لجأنا في بعض

النقاط إلى الاستشهاد بمعالم أقدم قليلا، وترجع إلى مختلف فترات تطور العمارة الإسلامية قبل الحرب العالمية الأولى.

ويعتبر هذا المسح الموسّع للمساجد عبر التاريخ وفي مناطق جغرافية متباعدة منهجيا، لأن هذه العمارة بحكم وظيفتها الأساسية (الصلاة) بقيت متواصلة زمانيا ومكانيا، ويجدر التنويه الى أنّ موضوع المسجد والعدد الهائل والمتنوع من المباني وكذلك طول الحقبة الزمنية التي شهدت تطور هذه العمارة قبل وصولها الى عصرنا، يحثنا على دراسة هذه العمارة من منطلقين أساسيين وهما الطابع المعماري أولا وثانيا آليات التمويل واتخاذ القرار حول التصميم.

وهذان العنصران يتشابكان ويتداخلان على مستوى العديد من النقاط، ومع ذلك فإننا توخينا في بحثنا هذا طريقة جعلتنا ونحن نحلل المساجد من حيث طابعها المعماري، لا نعتبر في الأمثلة التي نوردها عنصرا آليات التمويل واتخاذ القرار ونفس الموقف اتخذناه حين كنا نتحدث عن عمارة المساجد من حيث آلياتها الإنشائية وطرزها المعمارية.

وانطلقت دراستنا من عدد من الملاحظات التي رصدتها الأدبيات المتخصصة في عمارة المساجد وسعينا إلى مناقشتها في هذه الورقة :

شهدت عمارة المسجد خلال تطورها قدسية (sacralisation) متنامية في فضاءاته ومكوناته وأشكاله، بينما فقد المسجد شيئا فشيئا، دوره الاجتماعي والسياسي، وانصرف إلى صالح قصر الحكم (أو الحكومة) وعن دوره التعليمي لصالح المدارس والكليات المستقلة.

الانقطاع (rupture) في تطور اللغة المعمارية بين معالم ما قبل الحداثة وفترة الاستعمار الغربي والمعالم الحديثة التي أفرزتها المجتمعات المسلمة، وكان لهذا الانقطاع الأثر الكبير في ضياع أضعف اللغة المعمارية في هذه البلدان المسلمة سواء في بناء المسجد أو غيره.

ظهور نوع جديد من السلطات المركزية كمُمولي البناء (Mécènes)، وهم الحكومات وممثلي الحكام في الدول الوطنية المستقلة، وبادر العديد من هؤلاء إلى بناء الجوامع الضخمة، وكان الهدف من ذلك تقديم خدمة للشعب والتعبير في ذات الوقت، على القوة والسلطة الفردية أو الحزبية أو الطائفية أو القبلية وغيرها، وهذا على غرار ما حدث في عهد الأمراء والملوك والسلاطين.

من الملاحظ أن قرارات بناء المساجد ومواقعها وحتى مكوناتها وأنماطها المعمارية، أصبحت تضطلع بها الهيئات المختصة في التخطيط العمراني للمناطق، فأصبح المسجد وموقعه وطابعه وسعته والمرافق الملحقة به تخضع لقوانين التخطيط العمراني (Plans Directeurs et Zoning) وهذه الممارسة الحديثة في تخطيط المدن أضرت بمركزية المسجد في النسيج العمراني وأضعفت من وظيفته الاجتماعية، كما قلّصت من حرية المجتمع المدني في الاختيار وأخذ القرار وأضعفت من دور المعمارى واسهاماته الابداعية. فالهيئات المحلية المسؤولة عن تخطيط المدن والأحياء أصبحت مسؤولة أكثر من الأفراد أو جماعات الأحياء في بناء مساجدها وجوامعها. وغالبا ما يكون قرارها مبنيًا على تطبيق حرفي لقوانين التخطيط المستوحاة في معظمها من القوانين والمعايير الغربية (standards). بل رأينا كيف تفرض هذه الهيئات، أحيانا، نمطا معماريا موحدًا لفئات المساجد المختلفة وتطالب من يريد أن يُمول إنشاء مسجد في حيه أو ديرته أن يتقيد بهذه الأنماط والمواقع والمرافق المقررة مسبقا وذلك دون أي نقاش جاد أو تعاط مع الأهالي. وأدى هذا الأسلوب من التعامل إلى تحويل علاقة الناس بالمسجد إلى علاقة وظيفية محضة، وبات مثله في ذلك كمثل أي مرفق حكومي، حيث لا يختلف في مقاربة الناس له عن دار العدالة أو البلدية أو المستشفى.

أولاً: عمارة المسجد بين التكليف الديني والتقديس:

عند الحديث عن مصطلح القداسة في عمارة المساجد علينا أن نفصل بين المسجد كمبنى والمسجد كمكان للصلاة والتعبُّد، أي المسجد كمركب فضاءات ذات وظائف مختلفة والمسجد كمؤسسة اجتماعية ودينية. أما عن فعل بناء المساجد وتعميرها بالصلوات فيمكننا اعتبارها تكليفاً دينياً، وذلك من منظور الخطاب القرآني والأمر الإلهي الذي نزل على النبي إبراهيم عليه السلام واستجابته له، وفي ذلك دعوة واضحة إلى كل الأنبياء من بعده وإلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ببناء بيوت الله⁽¹⁾.

ومن هذا المنطلق أزعّم أن بداية عمارة المساجد كانت تكليفاً دينياً وليس مبادرة مدنية لا دينية كما زعم بعضهم (Hillenbrand, R. 2004). فوجوب إقامة المسجد أوبيت العبادة مسألة واضحة في الآيات المذكورة. ومع ذلك فإن الباري عز وجل لم يقيد الناس بالشكل والمكونات والمفردات والمواد وما إلى ذلك. ثم بعد ذلك، وضع الفقهاء شروطاً، وهي أن تكون الأرض حلالاً غير مغتصبة، طاهرة غير نجسة وأن تكون القبلة موضحة.

أما عن أسلوب وآليات بناء المسجد فشئ آخر، وصحيح أن القرآن والسنة والفقهاء لم يذكروها، بقي أن أول مسجد بني للناس بحضور الرسول صلى الله عليه وسلم كانت آلية بنائه مدنية، حيث شارك الجميع في إنشائه بمواد وتقنيات محلية مع مراعاة اتجاه القبلة والقواعد الخاصة بالمجتمع المدني في ذلك الوقت.

1- مثلما جاء في الآيتين 125 و 127 من سورة البقرة. والآية 36 من سورة النور وكذلك الآية 108 من سورة التوبة.

كما تبين الآيات 144 و 145 - 149 من سورة البقرة أن القبلة هي شطر المسجد الحرام. بينما تحث الآية 125 من نفس السورة على تطهير المسجد الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود. وتحمل الآية 87 من سورة يونس أمر الله لنبيه موسى وأخيه هارون أن يجعلوا بيوتهم قبلة.

كما أننا نتفق مع من يذهب الى القول بأن الأشكال والمكونات الفضائية والتفاصيل المعمارية لهذا المعلم المقدس ليست مُقدسة (Haider, G.1996). بعض عناصر المسجد التي تُعطي معنى لوظيفته الأساسية كمكان للصلاة وهي المكان المسقوف للصلاة والمحراب والحائط (أو السُترة) الذي يحدد فضاء الصلاة، هذه العناصر لا بد منها ويمكنها التشكُّل والتواءم مع التطور الهائل في أشكال العمارة الحالية بصفة عامة. ولكن القبة والمئذنة (أو المئذنة) والباحة والأروقة والأسقف بأشكالها المتعددة، هذه العناصر لا قداسة لها ووجودها ليس شرطاً كي يكون المبنى مسجداً. بل لعلّه من المستحب تجاوز هذه الصورة المهيمنة على عمارة المساجد وإعادة إبداع فضاءات وتفاصيل معمارية تُعبر عن العصر الذي نعيش فيه وتعكس فهم المجتمع المسلم الصحيح لتاريخه وتاريخ عمارته ولدوره في البلاد التي يعيش فيها ومسؤوليته في الأرض التي أستخلفنا الله فيها.

ثانياً: الأنماط المعمارية للمساجد:

حاولت هذه الدراسة أن ترصد أكبر عدد ممكن من التنوعات في عمارة المساجد التي ظهرت خلال النصف الأخير من القرن العشرين والى يومنا هذا. وحاولنا أن نعتبر في هذا الاختيار التوزيع المكاني والزمني للمعالم كي نشمّل أكثر المناطق التي يستقر فيها المسلمون في عصرنا هذا سواء في البلاد الإسلامية أو غيرها. كما كانت الأولوية في الاختيار تذهب الى المعالم المرصودة في جائزة الأغا خان للعمارة وخاصة تلك المعالم التي مُنحت هذه الجائزة. وذلك لأن لهذه الجائزة آليات صارمة في اختيار المباني التي لا شك في قيمتها الأبداعية والتي تم بناؤها واستعمالها لمدة سنتين على الأقل. كما أدرجنا في أمثلتنا بعض المعالم التي وقفنا عليها أو وصلتنا أخبارها عبر الأدبيات المختصة. وبعد دراسة أنماط ما

يقرب من خمسين مسجداً وجامعاً رأيناهم يمثلون الأنماط والأشكال الطاغية في عصرنا هذا، توصلنا إلى اقتراح فرز هذه العمارة حسب الأنماط التالية:

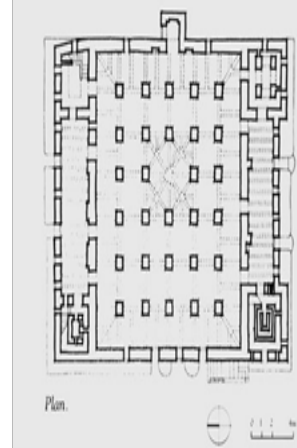
النمط العامي أو المحلي (Style Vernaculaire):

قد يكون النمط العامي في عمارة المساجد هو النمط الأقدم والأكثر استمراراً في تاريخ العمارة الإسلامية. ففي الماضي كانت المجتمعات الريفية تنظم فضاءات مساجدها حسب انتماءاتها القبلية أو العنصرية أو الطبقية، وكان لكل مجموعة عمدة أو شيخاً أو مالك أراضٍ يضطلع أو يشرف على مسؤول التمويل، ولكن البناء يكون من طرف الأهالي، والقرارات ترجع في معظم الأحيان إليهم دون اللجوء إلى مهندس معماري بالمعنى المهني المتعارف عليه حالياً.

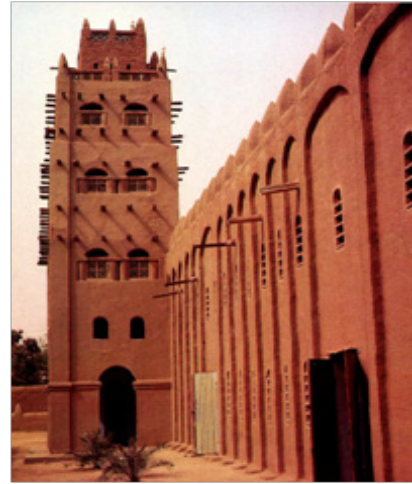
والجماعة تكون مسؤولة كلياً على نمط عمارة المسجد بل وعمارة المنطقة التي تعيش فيها. وهذه الممارسة قريبة من الأسلوب الذي بني به المسجد في وقت الرسول (ص) وفي عهد الخلفاء من بعده، وهي نفس الممارسة التي أفرزت فيما بعد مساجد القرى والحارات القديمة في العالم الإسلامي وحتى في وقتنا الحالي أمثلة كمسجد (Yaama Mosque - Niger) و(Niono Mosque - Mali) وكذلك (شكل 1).



الشكل 1:- أمثلة على النمط العامي أو المحلي (Vernaculaire) مصدر:
جائزة الأغا خان



Great Mosque of Niono, Mali, 1973) جائزة الأغا خان للعمارة 1983



Yaama Mosque, Niger, 1982) جائزة الأغا خان للعمارة 1986

ولأنه إنما يُعتمد على نفس تقنيات ومواد البناء، يكون المسجد في شكله ونمطه المعماري شبيها ببيوت القرية أو الحارة وباقي مرافقها. وهو لا يحتاج إلى ما يميزه كمسجد لأنه معلوم عند مستعمليه جميعهم بما أنهم هم الذين بنوه. وعادة ما يكون الجامع في هذه المجتمعات هو الوحيد الذي يتميز عن باقي المباني لأهمية صلاة الجمعة ولأن بعض المصلين يمكن أن يأتيه من خارج البلدة أو الحي لأداء صلاة الجمعة.

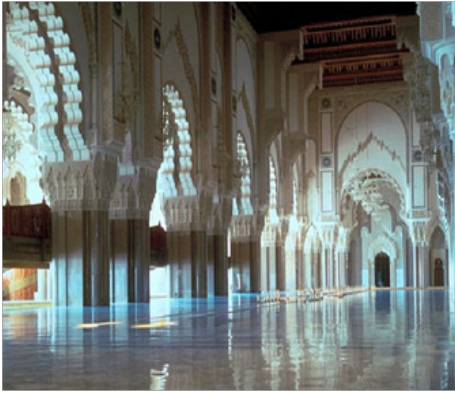
ولكن الحداثة والعولمة قلّصت من مثل هذه الممارسات في بناء المساجد حيث أُمست هذه الأخيرة مثل غيرها تخضع لقوانين وقرارات الحكومة أو ممثليها المحليين في ما يخص البناء وأنماطه المعمارية. وكان لهذا التغيير الجوهري في مراكز القرار وتقنيات البناء الأثر الكبير في شكل وموقع وحتى رمزية وأهمية المسجد في المدينة أو التجمع السكاني.

وكانت الأمثلة الصائبة التي أشرنا إليها خلال بحثنا إنما نجحت بسبب أنها حافظت على تقنيات وقوانين البناء وكيفية استعمال المواد الإنشائية وحسن بلورتها، وإعطائها لغة رمزية خاصة بالعمارة المحلية. من جهة أخرى وقفنا في شتى أنحاء الوطن الاسلامي على أمثلة أخرى سلبية عديدة أنتج فيها البناء الجماعي، على غير بصيرة بمقومات العمارة المحليّة، "عاهات" معمارية. وقد تمخض ذلك في بعض الأحيان عن نتائج وخيمة وخاصة عندما قرر بعض الأهالي ترميم أو إعادة بناء مساجدهم التاريخية وذلك كي يتسنى لهم استعمالها من جديد. حيث يقومون بتشويه المعلم أو يعيدوا بناءه فيستبدلونه ببناء غريب لا يمت إلى الشخصية المحلية بأي صلة.

النمط التأريخي:

يتمثّل هذا النمط في الرجوع الى الأشكال المعمارية للمساجد في حقبة

معينة من تاريخ العمارة الإسلامية (بما فيها الأنماط المحلية) واتخاذ هذا النمط كنموذج يقوم المعماري بتقليده كلياً أو الأخذ من أهم العناصر المكونة للمسجد. وغالباً ما يأخذ المعماري عن أكثر من نموذج ويكون تصميمه مزيجاً من الأنماط المختلفة مما تنتج عنه أشكال إكلكتية. (الشكل 2).



جامع الحسن الثاني في الدار البيضاء- المغرب - مصدر: [www. Archnet.org](http://www.Archnet.org)



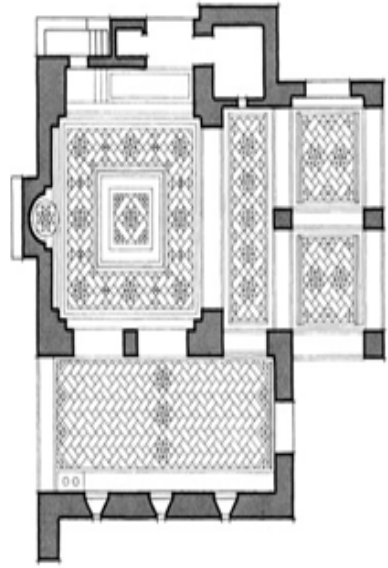
جامع الأمير عبد القادر في قسنطينة - الجزائر-المصدر: د. بن قاري

الشكل 2: أمثلة على مساجد ذات النمط التاريخي

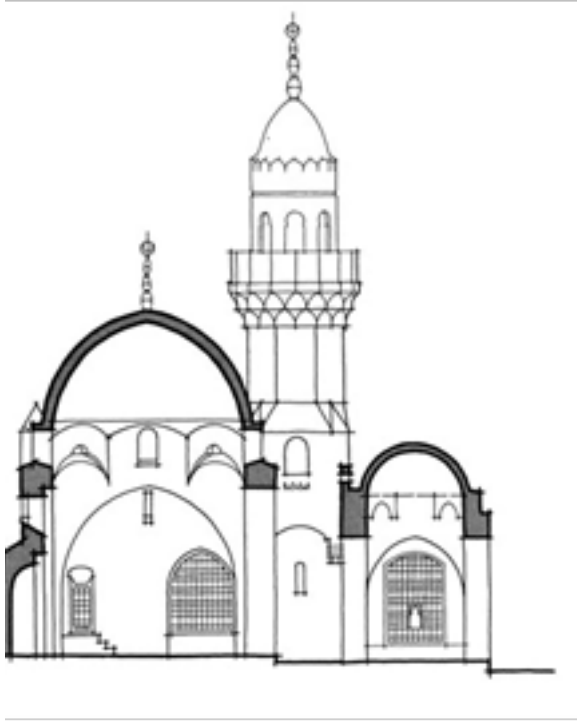
ونادرا ما يعطي هذا العمل تركيبا مثيرا للإعجاب كما في (الشكل 3).



الجامع الأكبر في مسقط - سلطنة عمان-المصدر: د.بنقاري



جامع الكرنيش في جدة. مصدر: جائزة الأغا خان



الشكل 3: أمثلة على مساجد ذات النمط التاريخي

النمط الإسلامي (Pan-Islamic Style):

من التطورات التي لوحظت خلال الخمسين سنة الأخيرة، لجوء أكثر مصممي ومتخذي القرار في بناء المساجد إلى بعض الرموز والأشكال التي يرونها تعبّر على الهوية الإسلامية للمبنى. وفي مقدمة هذه الرموز التي أصبحت إسلاموية (Pan-Islamic) المنارة (أو المئذنة) والقبّة. وهذه الإسلامية أصبحت الأكثر هيمنةً على عمارة المساجد في عصرنا الحاضر.

وفي الوقت الذي نشهد فيه تشويها للإسلام وحضارته على مستوى العالم، حيث تُمارس ضد المسلمين في الشرق والغرب الضغوطات الثقافية والنفسية وحتى المادية؛ في هذا الوقت نلاحظ أن عمارة المساجد في هذه المجتمعات

أصبحت تعكس تمسكاً وحتى تعصباً لصورة نمطية ثابتة للمسجد. وذلك على الرغم من أن هذه الصورة لا تعبر على معنى عالمية رسالة الاسلام وإنما تعكس رغبة في إعلان الاختلاف في وجه المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يرفضها وبالتالي الانغلاق عنه. مما رسّخ فكرة أن "قداسة" المسجد وهويته مرتبطة بوجود المنارة والقبة فيه.

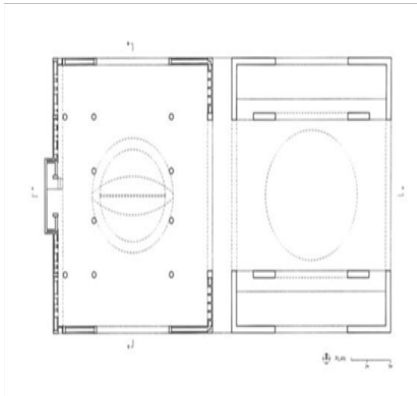
وقد كان لهذا الطابع الاسلامي وتأثيره الواسع في شتى أنحاء العالم الاسلامي. وبصفة أعمق في مناطق جنوب شرق آسيا والأمريكتين. وقد بلغ هذا المد الاسلامي ذروته في إندونيسيا أين تصنع القباب المعدنية بالجملة وتباع في الأسواق كي تزين بها أسقف المساجد (Khan,H.D. 1990) (جامع الكريستال في ماليزيا وجامع صالح في اليمن) (شكل 4)

وفي عدد معتبر من المساجد التي أنشأت في شمال أمريكا وكذلك في أوروبا، يُتخذ لها النمط الاسلامي لأسباب عدة منها تنوع أصول المسلمين المشاركين في التمويل والذوق السائد بينهم وفكرة القداسة التي ذكرنا والمرتبطة بوجود المنارة والقبة ضمن مكونات المسجد المعمارية (مثال-الجمعية الاسلامية في بوسطن - جامع روما) (الشكل 4).

وللأسف، فإن طغيان هذا النمط المعماري جعل المساجد تتميز وتبدو غريبة في نسيجها العمراني في هذه البلدان، وهو ما يعكس غياب أي مجهود من أجل التحوار مع العمارة المحلية أو السائدة في تلك المناطق. لقد رصدنا بعض الأمثلة الايجابية ولكنها تبقى مجرد استثناء للقاعدة وهي نادرة عموماً. ومن الأمثلة على ذلك مسجد دار السلام، الذي يحاكي أسلوبه طابع العمارة الصحراوية في "نيومكسيكو"؛ ومسجد (Plainfield Mosque -USA) الذي استوحى أغلب مفرداته المعمارية من لغة العمارة الحديثة ونجح في التحوار مع عمارة الغرب مع احتفاظه بهويته الاسلامية أو على الأقل الدينية.

النمط الحداثي (Modernist style):

ويتميز هذا الطابع بتعاطي المعماري مع اللغة المعمارية الحديثة والمتأثرة بخصوصيات العصر. وتقطع التصميمات والمفردات المعمارية والإنشائية والتكنولوجية التي يستعملها المعماري مع كل أشكال وممارسات الماضي. وعادة ما يكون هذا الطابع من نتاج معماريين وممّولين تشكلت عقولهم وثقافتهم في الغرب. ويُعتبر ظهور هذا الطابع متأخراً نسبياً مقارنة مع بداية العمارة الحديثة في الغرب والعالم. فأوائل المساجد التي صُمّمت على هذا الطراز لم تظهر قبل سنوات الثمانينات من القرن الماضي. كما أن انتشار هذا الطابع في عمارة المساجد محدود جداً وتركّز في الدُّول غير الإسلامية مثل الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة (The muslim society in San Fransisco USA) أو (Plainfield mosque) مع وجود بعض الأمثلة المبكرة أيضاً في دول إسلامية مثل باكستان (The Pearl Mosque) وتركيا (مسجد المجلس الوطني في أنقرة) وبنجلادش (Chandgaon Mosque) أو ذات الغالبية الإسلامية مثل ألبانيا (جامع شرف الدين أو الجامع الأبيض) (شكل 5)



مسجد Chandgaon بنجلادش. المصدر: جائزة الأغا خان للعمارة



مسجد الصيفية - سنغافورا - المصدر: www.Archnet.org

شكل 5: أمثلة على المساجد ذات الطابع الحداثي

النمط المُجدّد:

تتميز المساجد التي يمكن أن تُصنف حسب هذا الطابع بتوسط طابعها المعماري بين الإسلامية أو التاريخية والحداثية. ونرى هذه المساجد المرحلة التحولية للمسجد نحو الحداثية في شكله والعصرية في وظائفه. ونلاحظ أن هذا النوع من المساجد قد احتفظ بأهم المقومات الشكلية للمسجد التاريخي وخاصة المنارة أو القبة أو الاثنين معا بينما حاول المعماري ادراج هذه العناصر حسب أشكال وباستعمال مواد بناء معاصرة مثلما نراه في مسجد كولون في ألمانيا أو مسجد السلام في كندا (شكل 6). كما يقع هذا التجديد في الوظائف المرافقة للمسجد كذلك ولعل أبلغ مثال يصور هذا التجديد ما نراه في مشروع جامع الجزائر الأكبر الذي هو قيد الإنشاء والذي أثر مصممه الاحتفاظ بالمنارة كشكل و أدرج فيها وظائف جديدة من فضاءات العرض وقاعات أبحاث و محاضرات. وغالبا ما نجد هذا النوع من المساجد في البلاد الغربية (مثل ألمانيا وأمريكا) ولعل أصله كان هناك ثم انتقل إلى البلاد الإسلامية.



مسجد كولون المركزي – ألمانيا - المصدر: www.Archnet.org



مسجد السلام ومركزه التعليمي – كندا - www.Archnet.org

الشكل 6: أمثلة على مساجد ذات النمط المجدّد

ثالثاً: ترتيب المساجد من حيث التمويل وآلية اتخاذ القرار والتصميم والبناء .

1 - مساجد ممولة من طرف السلطة المركزية:

وتتمثل هذه السلطة في الأمراء والملوك والسلاطين والشيوخ والرؤساء والحكومات وكذلك المؤسسات التي تمثلهم. وهذا النوع من الجوامع ليس جديداً بل ظهر منذ القرون الأولى للإسلام (المسجد الأموي في دمشق، مسجد الفاتح في اسطنبول). وقد واكب ذلك، المنعرج الجديد الذي أخذه التاريخ السياسي والاجتماعي وحتى الديني للأمة. فقد بدأ تشييد جوامع السلطة مع بداية الحكم الوراثي في الدولة الإسلامية وهو متواصل إلى يومنا هذا، وذلك رغم بعض التغييرات المهمة التي سنتحدث عنها لاحقاً.

وغالباً ما تأتي هذه المساجد كإعلان عن السلطة الحاكمة وقوتها وهي تحاول من خلال لغتها المعمارية أن تعبر ولو شكلياً على الهوية الوطنية للبلد. ويصعب أحياناً على هذه المباني تحقيق ذلك بسبب عزلتها المادية والاجتماعية عن محيطها، حيث تكون على هامش المدينة أو الحي ولا يكون للمواطنين أي رأي أو قرار في إنشائها.

وتعتبر ظاهرة الجوامع الضخمة المنفصلة عن محيطها العمراني والاجتماعي ظاهرة حديثة تفاقمت مع ظهور الدولة الحديثة في العالم الإسلامي، والتي تزامنت مع فترة الاستقلال. وتتميز هذه الجوامع الضخمة، عموماً، بتعدد مرافقها وسعتها، وهي تستهلك بسبب ذلك الأراضي الواسعة والأموال الطائلة. ولا يخرج طابعها المعماري في الغالب عن الطابع الإسلامي (شكل 3) أو التاريخي (شكل 4)

وتتميز جوامع السلطة التي ظهرت خلال الخمسين سنة الأخيرة بتنافسها فيما بينها بما يمكن اعتباره نوعاً من "الزيف" أو "Artificiality"، حيث يقدم

الجامع أو يُسَوَّق على أرقامه القياسية من حيث سعة بيت الصلاة أو ضخامة سجاده أو كبر فوانيسها أو علُو منارته أو ضخامة قبته، ... الخ

وهذا النوع من الجوامع نجده متمركزا في العالم العربي (جامع الحسن الثاني في المغرب)، وإن كان بعضها موجودا أيضا في جنوب شرق آسيا (جامع الاستقلال في جاكرتا). وجوامع الفخامة هذه لا تمت في الحقيقة إلى المبادئ الإسلامية بأي صلة. وربما حان الوقت لإعادة النظر في آليات نقد عمارة المساجد الحديثة بحيث لا تقتصر على التركيز على العناصر الشكلية والتقنية والوظيفية فحسب، يضيف إليها عناصر مرتبطة بالمبادئ الدينية في البناء وربما العناصر الروحية أيضا. كما يمكن توسيع تطبيق هذه الآليات في نقد وتحليل العمارة عموما ضمن المجتمعات المسلمة وعند المسلمين.

2 - مساجد ذات التمويل الفردي:

لهذا النوع من المساجد وجوده العريق. ولعل أشهر مثال عليه في المغرب الإسلامي جامع القرويين في مدينة فاس بالمغرب الأقصى. حيث مولته ووقفت على بنائه امرأة مسلمة وهي فاطمة الفهرية حين حلت بهذه المدينة آتية إليها من مدينة القيروان.

في عصرنا هذا عادة ما يكون الطابع المعماري لهذا النوع من المساجد متأثرا بشخصية المعماري وأفكار الممول وإن طغى الطابع الاسلامي على معظم الأمثلة التي وقفنا عليها (مسجد الأمين في مسقط، خاصة إذا أقيم في دولة غير اسلامية)، وأحيانا تحمل هذه المساجد الطابع المعماري للمنطقة التي ينتمي إليها الممول.

وبالنسبة للوظائف المرافقة للجامع، فهي في الغالب متنوعة، مع هيمنة فكرة المدرسة القرآنية والمكتبة الإسلامية وبعض المحلات التجارية. وتكون

بعض المرافق مرتبطة عادة، بميدان تخصص أو نشاط الممول الاقتصادي (مثال جامع مصطفى محمود في القاهرة الذي من مرفقاته مستشفى للعلاج).

لقد كان للممولين الفرديين من ذوي الثروات دور متواصل في تشييد المساجد والمدارس ودور القرآن وكذلك الطرقات والمستشفيات والجامعات والآبار والنوافير والفنادق وغيرها. وتجدر الإشارة هنا إلى تقلص هذا الأداء خلال الخمسين سنة الأخيرة حيث بات معظمهم يكتفي بتمويل المساجد والجوامع وما رافقها من وظائف تعليمية.

التمويل من طرف جمعية أهلية:

هذا النوع من المساجد هو الأكثر رواجاً تاريخياً وجغرافياً، ويمكن اعتبار هذا الأسلوب الأقرب إلى الأسلوب الجماعي الذي بني به أول مسجد في الإسلام، وهي الطريقة التي ما فتئت تُمارس إلى يومنا هذا وإن اختلفت ظروفها وآلياتها. ويُعتبر بناء المساجد من الأعمال التي نجحت في تنفيذها الجمعيات الأهلية، ويعتبر ذلك مثالا جيدا على الدور الإيجابي والبناء الذي يقوم به المجتمع المدني في المشاركة في تكوين بيئته العمرانية وإنشاء عمارة تستجيب إلى احتياجاته وتتكامل مع هويته. كما نلاحظ كثيرا من الواقعية في حجم المساجد التي تقوم عليها الجمعيات الأهلية حيث تكون ذات سعة مرتبطة بعدد أفراد الجماعة التي أنشئ من أجلها.

وتُصمم هذه المساجد وتُشيد بتعاون بين الجماعة أو الجمعية الأهلية التي تمثلها والمعماري. ويتم اختيار هذا الأخير عن طريق المسابقة أو بشكل مباشر وشخصي وهذا النوع الجماعي أو الأهلي من المساجد هو السائد في الغرب. وفي الغالب، يكون موقع المسجد في مثل هذه الحالات محددًا بقوانين التخطيط العمراني.

عمليا تُحدد الهوية المعمارية للمعلم بعد أخذ ورد بين أفراد الجمعية والمهندس المعماري. و غالبا ما ينتج عن هذا مسجدا ذو طابع اسلاموي (Windsor Mosque in Canada) أو محلي (Darulsalam Mosque in New Maxico&Yaama Mosque –Niger). وحدث أن أخذت بعض مساجد الجمعيات المحلية طابعا حداثيا أيضا (Plainfield Mosque USA & white mosque Bosnia).

مساجد الجاليات المسلمة في الدول غير المسلمة :

بدأت المساجد في الظهور في الغريفي فترة الخمسينيات من القرن الماضي أي بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة. فقد استقرت عديد الجاليات المسلمة هناك وتفرقت فيها حسب ارتباط كل دولة بمستعمراتها. فبريطانيا استقبلت جاليات ذات أصول هندية وباكستانية وفرنسا جاءها مسلموها من شمال أفريقيا، وأمريكا الشمالية استقطبت جاليات مسلمة من مختلف البلدان. وتتمثل مصادر تمويل معظم المساجد التي بنيت في الدول غير الاسلامية فيما تجمعه الجماعات المحلية بالتعاون مع بعض الأثرياء أو بالتنسيق مع بعض سفارات بلدان إسلامية.

ويأخذ الطابع المعماري للجماعات المحلية شكل الطابع التاريخي للبلد الذي تأتي منه أغلبية أفراد الجماعة أو البلد الذي ينتمي إليه الممول الأكبر للمشروع. وعندما تكون قوانين البناء في البلد الحاضن مقيدة فإن ذلك يؤثر أيضا في شكل المسجد وأسلوبه المعماري. ومن هذه الأمثلة جامع باريس ذو الطابع المغربي ومسجد طوكيو ذو الطابع العثماني.

ويمكن للمسجد أن يلتحف هوية إسلامية أو تاريخية، وذلك في شكله الخارجي وفضاءاته، بينما تتنوع الزخرفة الداخلية وتأخذ اتجاهات اكلكتية

مثلما نلاحظه في جامع روما. ويتأثر هذا النمط المعماري للمسجد برؤية الجمعية الأهلية المقررة، ويتأثر كذلك بالحالة الاجتماعية والسياسية للجماعة التي تمثلها تلك الجمعية. وفي الحالات التي ينتمي فيها أغلب أفراد الجماعة إلى فئة ذات مستوى معرفي وثقافي معين فإنهم يقومون باختيار المعماري المناسب ويتعاونون معه في تصميم المبنى. وفي مثل هذه الحالات تكون اختيارات المعماري الأسلوبية والتقنية هي المحددة لشكل المسجد ولغته المعمارية. وقد لاحظنا ذلك في مثال مسجد دار السلام في نيومكسيكو والذي صممه المعماري المصري حسن فتحي، فجاءت عمارة المسجد معبرة عن النوبية المصرية التي يعشقها هذا المعماري وبني بها أغلب مبانيه. كما أن هناك مثال آخر ذو طراز حديث هذه المرة وهو جامع (Plainfield - Indiana - USA) من تصميم المعماري Gulzar Haider.

ولعله من الأجدر للجاليات الإسلامية التي استقرت في المهجر أن تحذو حذو الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم لما بنى مسجده في المدينة. حيث إنه بنى بنفس طراز البناء في المدينة التي استقبلته ولم يفرض أي تصميم على المهاجرين أو الأنصار بل تركهم يبنون وفق أعرافهم في ذلك الوقت. وهو تعامل لابد أنه ترك في نفوس غير المسلمين من سكان يثرب آنذاك أثرا جميلا.

ونحن من الذين يدعون إلى العمل بهذا الرأي النبوي والسنة الشريفة، فعوضا عن محاولة الدعوة إلى الإسلام بتكرار وفرض نفس الأشكال السائدة في البلاد المسلمة على أساس ربط خاطئ لعداسة الشكل بقداسة الوظيفة (Spahic, 2008)، كان من الأجدر والأيسر أيضا على المسلمين في الغرب بناء مساجدهم بأساليب البلاد الحاضرة واستعمال التقنيات السائدة فيها، وذلك في تعبير عن سعة صدر وانفتاح دين الإسلام وانتهاءه الإنساني الواسع. وهو نفس ما كان يمارسه المسلمون بصفة عامة لما كانت الحضارة الإسلامية في أوج تطورها

وازدهارها. فلم يكن يعنهم حينئذ الحفاظ على هوية شكلية تفرّق عمائرهم عن مباني غيرهم من البشر مهما كانت دياناتهم أو معتقداتهم مثلما كان يفعل الروم والإغريق. بل بنى المسلمون الفاتحون مساجدهم في أشكال وبتقنيات أقرب ما تكون الى الأشكال والتقنيات المستعملة في دور عبادة تلك الأصقاع التي وصلوا اليها. لذلك لم يأت شكل جامع الفاتح الذي يعتبر أصل الطابع العثماني، والذي وصل خطأ حتى شوارع طوكيو، إلا من عمارة كنيسة الآية صوفية المسيحية.

ونشير هنا إلى نقطة أخرى مهمة وإيجابية في العمل على إنشاء المساجد، وهو التنظيم الكبير الذي نشهده لما تتعلق نية الجماعة المسلمة ببناء مسجدها أو جامعها والتي لا نجد لها في غيره من المرافق. فآليات التمويل والانفاق والتواصل والتحاور وصنع القرارات والوقوف على المصممين ثم متابعة بناء المسجد بعد الحوار مع الجيران والسلطات من أجل الوصول إلى نقاط اللقاء والاتفاق. ثم بعد ذلك لا تتوقف الحركة والنشاط الحثيث بل يمتدان إلى اللمسات الأخيرة مثل اكمال الفرش والتجهيز ثم بعد ذلك الصيانة والتنظيف اليومي...

لماذا لا تُطبّق هذه الخبرة النفيسة التي اكتسبتها المجتمعات المسلمة، في إحياء المدينة وتعزيزها بمرافق أخرى تحتاجها بشكل ضروري عوضاً عن ترك مثل هذه الأعباء على كاهل السلطة المركزية أو المحلية بحيث نصل إلى ما وصلنا إليه اليوم وهي مدن وبيئات عمرانية غريبة عن احتياجات السكان وتطلعاتهم.

النوع الرابع من "الزبائن" أو الممولين لبناء المساجد وهم المؤسسات:

صاحب هذا النوع من القائمين على بناء المساجد في البلاد الإسلامية كل الحقب للحضارة الإسلامية وإن كان له حضور متفاوت الأهمية حسب العهود. فقد كان للمسجد والجامع مركزية ضمن المؤسسات التعليمية من مدارس وجامعات وكذلك بالنسبة للمؤسسات الخيرية كالمستشفيات ودور الفقراء

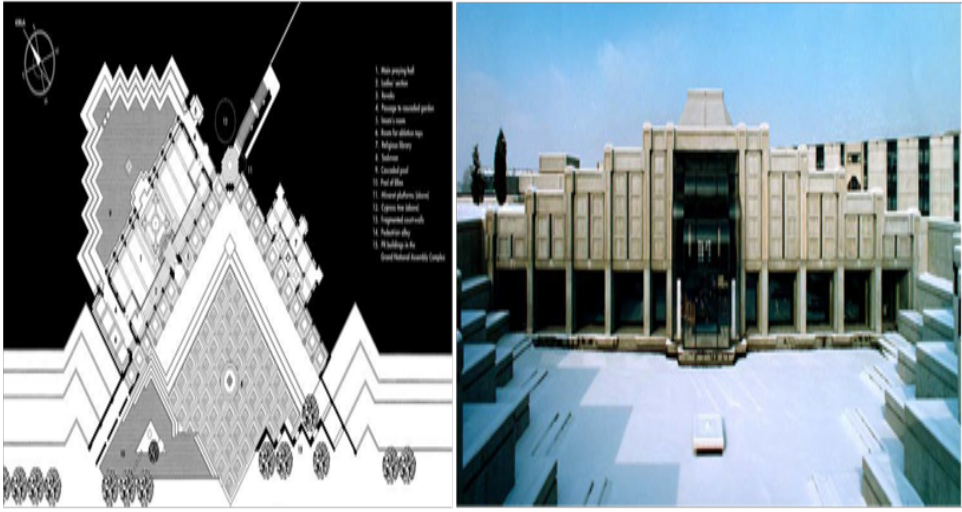
واليتامى. كما يمكن اعتبار المساجد التي كانت تُلحق بالفنادق أو الخانات واحدة من هذا النوع الذي بتنا نعرفه في عصرنا الحاضر. ومثل ذلك مسجد السلطان خان وUluCamiiDarulshifa في تركيا في عهد الدولة العثمانية.

ولم تختف هذه النوعية من المساجد خلال فترات الاحتلال حتى عاودت الظهور من جديد في أشكالها الحالية والمتجددة. فرأينا عديد المؤسسات التي مولت مساجدها وربما جوامعها مثل بعض الجامعات والمستشفيات والمطارات وغيرها. وفي مثل هذه الحالات يلعب المسجد أو الجامع دوراً محورياً، ليس فقط من ناحية وظيفته كمكان يجتمع فيه العاملون أو المستعملون للمؤسسة وإنما يكون محورياً من حيث موقعه الجغرافي والفضائي ضمن مخطط المؤسسة (جامع جامعة السلطان قابوس في عُمان وجامع مطار الرياض الدولي)

وخلال الفترة الأخيرة ومع التحولات التي عرفها أسلوب الحياة الجديد لدى بعض المسلمين رأينا كيف ارتبطت المساجد بأماكن لم تكن موجودة من قبل وهي أماكن الترفيه أو السياحة، فأصبحنا نرى مساجد الفنادق الفخمة (مسجد فندق اللؤلؤة في باكستان) وكذلك مساجد مراكز التسوق "المولات" (الشكل 7)



جامع جامعة السلطان قابوس - مسقط - عُمان - المصدر: <https://www.flickr.com>



مسجد المجلس الوطني في أنقرة-تركيا- المصدر: جائزة الأغا خان

الشكل: 7 أمثلة على مساجد مؤسسات

رابعاً: عمارة المسجد كتعبير على العلاقة التي تقيمها الجماعة المسلمة مع بيئتها العمرانية والاجتماعية:

بعد هذا السرد للأنماط المعمارية ولآليات بناء وتصميم المساجد نتناول بعض التساؤلات حول دور المسلم ومسؤوليته في تكوين بيئته العمرانية.

بالنسبة للعنصر الأول وهو دور المسلم في تكوين بيئته العمرانية وعمارة المسجد فإننا نحلله من منطلق التكليف الشرعي ومسؤولية الإنسان بصفته خليفة الله في الأرض. ويمكن لإنشاء المساجد وفعل العمارة مساعدتنا على تحليل وفهم العلاقة التي على المسلم تحقيقها مع الطبيعة التي تحيط به ومع أخيه الإنسان سواء شاركه في اعتقاده الديني أم لا.

ونرى أنه من الإمكان رصد هذه العلاقات عبر تحليل العمارة التي أفرزها المجتمع المسلم ومن بينها عمارة المسجد. وسنركز تحليلنا على الصورة التي أرادت الجماعات المسلمة أن تعطيها عن نفسها وهل أن أشكال التعبير عنها كانت تتغير حسب وضعية الجماعة المسلمة من حيث كونها تعيش في بلد مسلم أم غير مسلم؟ وبالفعل، لاحظنا عبر الأمثلة التي اعتمدناها أن علاقة الجماعة المسلمة بمحيطها العمراني والاجتماعي تتغير عادة على حسب أغلبيتها أم أقليتها في البلد الذي تعيش فيه.

ففي حالة ما إذا كانت الجماعة المسلمة تعيش في بلاد مسلمة، فغالباً ما يكون نمط مساجدها يميل إلى الأنماط التاريخية مع الرجوع إلى الشكل الأقرب إلى ثقافتها وإلى "الصورة المسبقة" التي تحملها الجماعة عن أنسب طابع يعبر عن هويتها. وغالباً ما تلجأ هذه الجماعات إلى الطابع الإسلامي حيث بات من العسير العثور على تجارب تتعدى هذه الصورة.

ومن الطريف أن نجد مجتمعات مثل المجتمع العماني الذي كانت عمارة مساجده عمارة محلية تقليدية رفيعة الذوق⁽¹⁾، أن تتحول هذه العمارة خلال النصف الأخير من القرن العشرين إلى عمارة إسلامية تأخذ من هذا الطابع الجهوي ومن ذاك تفقد شيئاً فشيئاً من جماليات وتفرد (originality) المسجد العماني القديم.

أما إن كانت المجموعة المسلمة تعيش في مجتمع غير مسلم (مثل الغرب) أو في دولة متعددة الديانات (مثل الهند و ماليزيا ولبنان...) أو فيها أكثر من مذهب إسلامي (مثل إيران، العراق، البحرين، السعودية، الكويت، عمان، سوريا...) فغالباً ما يكون التنافس على مستويين أساسيين:

1- وذلك بسبب تأثرها بالمذهب الأباضي الغالب، حيث كانت قمة في البساطة والأناقة، وذلك رغم تجردها من الزخارف والتزاويق الخارجية وغياب المنارات والقباب عنها إلا في حالات نادرة جداً.

• التميز كمجموعة مسلمة على باقي الديانات (ماليزيا، الهند، لبنان، و الغرب)

• التميز كمجموعة مذهبية (يحدث عادة بين السنة والشيعة)

ففي الحالة الأولى يكون الطابع المعماري الأكثر حضوراً هو الطابع الإسلامي الإكلكتيكي، حيث تحضر المنارة والقبة بشكل آلي، وذلك في كل أشكالها وأحجامها. وهي: حسب رأي منشئها، كافية شافية في التعبير عن هوية جماعتهم، وبالتالي لا حاجة للبحث والاشتغال في إبداع مكونات المسجد المعمارية، فلا ضرورة للتواصل مع الفئات الدينية والاجتماعية الأخرى. وقد أشار البحث إلى النتائج السلبية التي تترتب عن مثل هذه الخيارات المحدودة الإبداع. حيث تؤثر على تماسك المجتمع وتُعزز من انغلاق مختلف فئاته بعضها عن بعض، وبالنسبة للمسلمين فإنها تنتهي بهم إلى العزلة والاختلاف في الانفتاح بدينهم على الآخرين.

أما في الحالة الثانية، أي حالة التميز كطائفة مذهبية، فإننا نلاحظ لجوء الشيعة مثلاً إلى العمارة الكلاسيكية التي تميز أغلب مراقد أئمتهم، وترجع إلى زمن الخلافة العباسية أو العمارة التاريخية عموماً، وذلك باتخاذ بعض العناصر من العمارة السلجوقية والصفوية والبويهية والمغولية. بينما يتفرد السنة بالرجوع إلى الطابع الكلاسيكي بأنواعه الأموية والمغربية والعثمانية، مع بعض الحالات التي يعتمد فيها على الأنماط التاريخية وخاصة المغولية⁽¹⁾، أو على الطابع التقليدي المحلي⁽²⁾، أو مزيج من كل هذا كما هو الحال في دول الخليج العربية.

وفي أغلب الأحيان لا تكون الحلول التي توصلت إليها هذه الجماعات حلولاً إبداعية وخاصة في الغرب أين تُعتبر الجاليات المسلمة حديثة العهد في هذه

1- عادة في الجوامع التي يراد لها أن تكون فخمة.

2- مثل الطابع النجدي في السعودية

الأوطان وليس لها أي تراث معماري إسلامي عريق. وذلك بالرغم من الفرصة الذهبية التي منحت لعمارة المساجد في الغرب كي تتحرر من قيود التقليد الأعلى للشكل وتُبدع أنماطا جديدة أكثر تماشيا مع التطور الاجتماعي والثقافي والتكنولوجي ومع اللغة المعمارية السائدة في تلك الأوطان . ولكن تحبذ هذه المجموعات غالبا، اللجوء إلى الأنماط الإسلامية أو تلك السائدة في أوطانها الأصلية.

الخاتمة:

إن انتشار الاسلام في شتى الأوساط الثقافية والاجتماعية والجغرافية، لدليل على عالميته وطابعه الاحتوائي وانفتاحه على الإنسانية كافة. وهذه الحقيقة هي عكس ما يروج له الإعلام الغربي، سواء كان ذلك عن جهل منه بهذا الدين ومجتمعاته المركبة أو عن قصد تشويهه وإعطاء صورة سيئة عن المسلمين.

ومن أجل زيادة الايضاح، فإن لدراسة عمارة المساجد المعاصرة من حيث أنماطها المعمارية وآليات بنائها وتحليل الصورة التي يريد المجتمع الذي أنتجها أن يعكسها عن هويته، أهمية لا يمكن انكارها. وذلك من أجل فهم تطلعات واحتياجات المجتمعات المسلمة الحديثة. ولا أعتقد أنه من المبالغة القول أن التعرف على ديناميكيات التطور في تصميم المساجد معناه بداية فهم التحولات التي تمر بها المجتمعات المسلمة المعاصرة أينما كانت. وربما سينبثق عن هذا الفهم -إن تم- رؤى متجددة لعمارة المسجد باعتباره المكان العام الذي يحتضن المجتمع المسلم في أوقات العبادة ويسهل تواصل أفراده فيما بينهم ومع المجتمعات والأفراد الغير المسلمين.

لقد بدأ بحثنا هذا بمناقشة مصطلح القداسة في عمارة المساجد وفصلنا فيما يُمكن اعتباره مقدساً فيها وما قدس منه خطأ، ثم تناولنا أشكال وآليات تمويل وبناء المساجد والعلاقة التي يُنشؤها هذا المبنى مع محيطه العمراني والاجتماعي. وكشف تحليلنا للأنماط المعمارية السائدة في عمارة المساجد المعاصرة عن وجود "صورة ذهنية مُسبقة" (stereotype) مُهيمنة على هذه العمارة. وهي: حسب اعتقادنا، معششة في رؤوس المعمارين وفي رؤوس زبائنهم على السواء. حيث أن معظمهم يجهل أو يتجاوز الواقع التاريخي المتنوع والمركب للعمارة الإسلامية، ويتعامل مع "صورة الماضي" بميثولوجيه أو أيديولوجية وليس بحكم أنها نتاج تاريخي يمكن نقده وحتى تجاوزه.

وقد ساهمت هذه الأفكار السائدة في "تجميد" تطور عمارة المساجد بصفة خاصة والعمارة الإسلامية بصفة عامة. ورغم أن النصف الأخير من القرن الماضي قد مرّ زاخراً بالتحوّلات والتغيرات لأفكار العمارة، وأمام كل التيارات المعمارية التي ظهرت ثم اختفت أو التي لا تزال موجودة، بقيت العمارة الإسلامية متقوّعة ومنعزلة في بوتقتها التاريخية ولم تكد ترصد هذه التحوّلات الفكرية في تطورها.

ويجدر بنا أن ننوه ونشيد هنا ببعض التجارب الإيجابية التي وقفنا عليها خلال هذا البحث. وذلك سواء كانت هذه التجارب متجاوزة للطابع الشكلي المهيمن ومولدة لأشكال وفضاءات جديدة (مثلما رأينا في Chandgaon Mosque Bangladesh – و مسجد شرف الدين في البوسنة) أو كانت متنوعة من حيث الوظائف المصاحبة للمسجد (مثل المستشفى في جامع مصطفى محمود أو المتحف ومركز الأبحاث في منارة جامع الجزائر).

ومن جهة أخرى، كشفت الدراسة عن فقدان المسجد لدوره الاجتماعي وموقعه في المدينة وتحوله إلى بناء معزول لا نتذكره إلا وقت الصلاة ولا تدل عمارته إلا على ديانة الجماعة التي تستعمله. ورافق هذا التهميش الوظيفي للمسجد في حياة وعلاقات المجتمع المسلم ظاهرة أخرى هجينة، ربما لم يكن لها أي وجود قبل سبعينيات القرن الماضي، وهي ظاهرة التنافس والتباهي بالشكل وخاصة الأحجام والأبعاد المادية للمسجد. وبدأت هذه الظاهرة بالجوامع الممولة من طرف السلطة. فبعد التنافس بعلو الأبراج وسعة السدود وطول الجسور، التفتت السلطات في الدول الإسلامية إلى التباهي بعلو منارات المساجد وسعة بيوت الصلاة وطول السجاد وضخامة المصابيح... ومما زاد في الأزمة التي بلغت عمارتنا هو تقليد الأفراد للحكام والحكومات بحيث أصبحت

المساجد الممولة من طرف الأفراد جزء من مسابقة الأحجام والمقاييس. في ذات الوقت لوحظ تقلص دور الجمعيات الخيرية وأصحاب الأموال في دعم المرافق الأهلية، واقتصرت دورهم على تمويل المساجد وحسب. وذلك على الرغم من أن كل المجتمعات المسلمة، غنمها وفقيرها، داخل البلاد الإسلامية وخارجها، محتاجة جدا الى مرافق لا تكاد السلطات المركزية تؤمنها بالشكل الكافي. ونذكر منها المكتبات العامة والمدارس وحضانات ونوادي الأطفال والنوادي الثقافية والحدائق والآبار وقنوات المياه والنوافير والمراحيض العمومية، وبيوت الإيواء لعابري السبيل أو الذين شردهم الفقر أو الحروب، والمستشفيات والمستوصفات وغيرها من المرافق التي أصبحت غاية في الأهمية في حياة المجتمعات المعاصرة.

وقدمنحتنا هذه الدراسة، التي شملت معظم التيارات الفنية والفكرية في عمارة المساجد، فرصة تسليط الضوء على الدور الفعال والإيجابي الذي تقوم به الجمعيات الأهلية والمجتمعات الإسلامية في تأمين دور عبادتها تمويلا وتصميما وإنشاء وتأثيثا وصيانة ورعاية. ووضحنا أن هذا الدور كان مستمرا منذ أولى المساجد التي بنيت في تاريخ الأمة الإسلامية وإلى يومنا هذا. وكانت هذه الممارسة مما يمكن اعتبارها الوحيدة التي لم تنقطع ولم "تتجمد" في شكلها وآلياتها، خلال تاريخ الأمة الطويل، بل تأقلمت وتحورت وانسجمت مع متطلبات وتطورات العصور والمجتمعات. ولعلها تكون الطريق الذي ربما سيقودنا إلى تجاوز الانفصام والتحجر الذي تعاني منه العمارة الإسلامية منذ نهاية القرن التاسع عشر، وذلك من خلال دراسة هذه الآليات ومحاكاتها لإرساء فهم جديد لجسور التواصل بين عمارة الأسلاف وعمارة المستقبل.

وبالجسور والتواصل لا نقصد التقليد السطحي لأشكال الماضي بوسائل وتقنيات الحاضر. إن ما نرمي إليه هو ما عبّر عنه المعماري راسم بدران في هذا

الموضوع حيث قال: "نتعلم الفعل من التاريخ ولكن لا نستعير المنتج" (Khan, H., 1990)، وعوضاً عن الضياع بين التقليد الفاشل وفوضى الأساليب المعمارية، من المنهجي الرجوع إلى معرفة ظروف نشأة اللغة المعمارية في تلك المجتمعات التي أصبحت مسلمة، وبدأ الإبداع من هناك.

المصادر:

- Davidson, Cynthia. (Editor) 1998: Legacies for the Future, Contemporary Architecture in Islamic societies: Aga Khan Award for Architecture.
- Grabar, Oleg. "The Architecture of the Middle Eastern City: The Case of the Mosque." In Islamic Art and Beyond, volume III, Constructing the Study of Islamic Art. Hampshire: Ashgate Publishing Limited, 2006. First published in Middle Eastern Cities, ed. I. Lapidus (Berkeley, 1969), pp. 26-46.
- Haider, Gulzar, 1996: "Faith is the Architect, Reflections on the Mosque", Architecture & Comportment / Architecture & Behavior, Vol. 11, No. 3-4, pp. 243-248
- Hillenbrand, Robert, 2000: Islamic Architecture: Form, Function, and Meaning, Edinburgh University Press, 2nd Ed.
- Holod, Renata and Khan Hasan-Uddin, 1997: The mosques and the modern world: Architects, patrons and designs since the 1950's. Thames & Hudson, London
- Khan, Hasan-Uddin, 1990: "The Architecture of the mosque, An overview and Design Directions" in Islam expressed in Architecture, Aga Khan Award For Architecture, pp. 109-142
- Serageldin, Ismail: "Faith and environment", in space for freedom, London, Butterworth Architecture, 1989.
- Spahic Omer, 2008: "Towards understanding Islamic Architecture", in Islamic studies, 47:4, pp. 483-510.